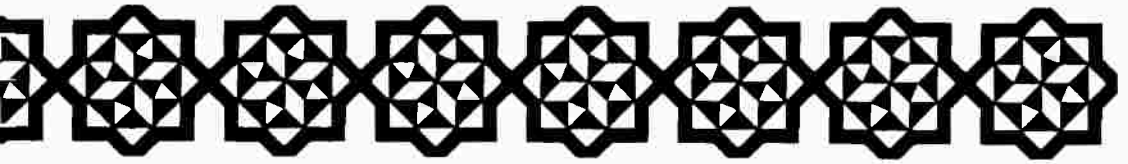

الفصل الثانى

بدايات الفتوحات الإسلامية
فى العصر الأموى

منذ تولى معاوية الخلافة بدأ يتجه إلى الفتوحات الإسلامية لحماية أمن الخلافة وحدودها .

وليس فى عهد معاوية ما يستلفت النظر من بَسْط الفتوح وكثرة الزحوف ، إلَّا ما كان من محاولة العرب اقتحام القسطنطينية واحتلال قبرص ورودس من جزر البحر المتوسط .

وأما فى الشرق فلم يكن على حدود فارس إلا فتوح قليلة ، وإرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة . وقد غزا عبد الله بن سوار العبدى ، الذى كان أميرًا على ثغر (السِّنْدِ) القيقان (١) مرتين ، وفى المرة الثانية استعان القيقان ببعض أنصارهم فقتلوه ، وغزا المهلب بن أبى صفرة الأزدى ثغر السند فوصل إلى لاهور (٢) . وهما بين « الملتان » و « كابل » فلقيه العدو وقاتله ، ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه ، فقتلوا جميعاً .

والواقع أن همة المسلمين كانت موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم أكثر منها نحو غيرهما من الجهات ، وكان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان ، أحدهما قسطنطين الثانى بن هرقل الثانى الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ ، وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ، وكان الروم يغيرون على البلاد الإسلامية فى كل فترة وأخرى لما بينهما من الجوار ، فرتب معاوية الغزو إليها برًّا وبحرًا ، أما البحر فكانت الأساطيل فى زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها ، وساعده على ذلك كثرة الغابات

---

(١) من بلاد الهند مما يلى خراسان .

(٢) مدينة بكابل من بلاد الأفغان ، وهى الآن فى إقليم باكستان .

بجبال لبنان ، حتى بلغت أساطيله ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العَدد والعُدد ، وصار يسيرها فى البحر فترجع غانمة ، وافتتح بها عدة جهات ، منها جزيرة قبرص ، وبعض جزائر اليونان ، وجزيرة رودس ، افتتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم ، وكانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم ، وكان معاوية يكثر لهم العطاء ، وكان العدو قد خافهم .

وأما فى البر فرتب الشواتى والصوائف [1] .

وكان العرب منذ فتحوا الشام يفكرون فى فتح القسطنطينية ، لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، ولو فتحها المسلمون أول عهدهم بالفتوح والتوسع ، لغلبوا على شمال أوربا بدون شك ولا ريب ، ولتبدَّل وجه التاريخ ، ولكنَّ المسلمين لم يفكروا فى القسطنطينية إلا سنة ٦٥٣ ميلادية ، فى أيام عثمان ابن عفان ، فجهزوا أسطولاً عظيماً فى ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسر ابن أبى أرطأة ، وأرسلوه فى البحر يمخر عبابه نحو عاصمة الرومان ، فتلاقى الأسطول العربى بأسطول الروم فهزمه وشتته ، وكان هذا فى أيام ولاية معاوية على الشام ، إلا أن الأسطول العربى فى هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية .

وفى سنة ٤٤ للهجرة ــ ٦٦٤ ميلادية ــ فى خلافة معاوية ، غزا الأسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أبى أرطأة أيضاً ، ووصل إليها وفقاً لرواية الطبرى ، ثم إن فضالة بن عبيد غزا خليقدونية ــ ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى ــ حيث وافاه يزيد بن معاوية [2] .

---

(١) الشواتى : جمع شاتية وهى الجيش الذى يغزو فى الشتاء .
والصوائف : جمع صائفة وهى الجيش الذى يغزو فى الصيف .

(٢) جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزوة سنة ٦٦٦ ميلادية ، وذهب غيره إلى أن السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة ، أو ٦٧٢ ميلادية .

ويقول مؤرخو العرب : إن معاوية جهز فى سنة ٤٨ جيشاً لغزو القسطنطينية برًّا وبحرًا ، وكان على الجيش سفيان بن عوف ، وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم ، وكان فى هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم .

ومشى هذا الجيش نحو عاصمة البيزنطيين مخترقاً طريق الأناضول ، حتى وصل قبالتها ، وكان بسر بن أبى أرطأة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهر نيسان وأيلول ، ولم يتمكنوا من فتحها ، فلما جاء الشتاء انكمشوا إلى جهة (فيزقيا) فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى .

وفى الربيع عادوا إلى حصار العاصمة ، ويقال إنهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية إلا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل فى فشلهم النار الإغريقية التى أحرقت جانباً من الأسطول ، كما أنه غرق جانب آخر منه أثناء رجوعهم .

ومن المرجح أن الجيش العربى الذى جاء من البر بدأ الحصار سنة ٦٦٧ ، وأن الأسطول العربى أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ، وبعض مؤرخى العرب يهملون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمد ذلك إلى سنة ٥٥ .

وفى أيام الحصار توفى أبو أيوب الأنصارى خالد بن يزيد ، وهو الذى نزل عليه رسول الله ﷺ ، بالمدينة يوم الهجرة ، وقد دفن خارج المدينة ، قريباً من سور القسطنطينية ، ولا يزال قبره بها يُزار للآن وعليه مسجد ، كان يتوج فيه خلفاء آل عثمان .

ومن الفتوح العظيمة ماكان فى إفريقية سنة ٥٠ ، فقد وَلَّى معاوية عقبة بن

نافع ، وكان مقيماً ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سَيَّرَ إليه عشرة آلاف جندى ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد عنهم الأمير نكثوا وارتدَّ مَنْ أسلم ، ثم ارتأى أن يتخذ مدينة يكون فيها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وأمر ببناء المدينة فبُنيت ، وبنى المسجد الجامع ، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وتم أمرها سنة ٥٥ للهجرة ، وسكنها الناس ، وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا ، فدخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وأمِنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها .

المـــرَدَة فـــى لبنـــان

دفعت بيزنطة ثمناً بالغاً لتساهلها فى تحصين الحدود السورية ــ كما يقول مؤرخو الفرنجة ــ فلما وفق العرب إلى إخضاع سورية وأخذوا يقتحمون الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى ، رأت بيزنطة نظرًا لصعوبة تحصين حدودها أن تؤلف فرقاً متحركة تنقضُّ على جنود الإسلام فى مختلف الجهات ، وتثيرها عليهم حرب عصابات بحيث تقل من حِدَّتِهم ، وتفضى إلى قوادهم بضرورة القبول للأمر الواقع ، وعدم مهاجمة الحدود الرومانية لتتمكن بيزنطة من تنظيم شئونها وتجديد سلاحها ، بعد الانكسارات التى ألمت بها فى ميادين اليرموك وأجنادين وفلسطين ومصر .

وقد ذهب ابن خلدون فى مقدمته إلى القول بأن العرب لم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم إلا فى الأرض السهلة ، وأما فى أعالى الجبال فإن نفوذهم كان ضعيفاً ، بحيث كان سكان الجبال فى أيام الخلفاء ينعمون بكثير من استقلالهم وحرياتهم ، لا تعرض لهم الحاميات العربية بكثير ولا قليل .

والواقع أن الزحف العربى وقف فى أنطاكية من جهة الشمال ، ولم يوفق إلى اقتحام جبال طوروس التى ظلت فى مدة الخلفاء الأمويين الحد الطبيعى بين سوريا الإسلامية وآسيا الصغرى اليونانية .

وكان يعيش فى بقعة من هذا الجبل جماعة ينعمون برغبة أكيدة فى السلب والغزو (١) ، كما يحبون المحافظة على استقلالهم وحرياتهم ، بحيث اضطرت روما

(١) ميشال السورى ج ٢ ص ٤٥٥ .

نفسها إلى احترام هذه الرغبة الاستقلالية فلم تعرض لهذه الجماعة ببطش ولانكر ، خصوصاً وقد كان من الصعب عليها أن تفرض إرادتها عليهم بالقوة والسيف ، وهو ما أبت روما التوسل به ، واكتفت بقبول المردة [1] — وهو اسم هذه الجماعة — بالخضوع ولو بالاسم إلى الإمبراطور ، وظل هذا شأنهم حتى عهد الإمبراطورية البيزنطية ، فاحترمت هذه بدورها استقلالهم ، واكتفت بأن تأخذ منهم بعض الجنود والمتطوعة .

فلما كانت الفتوحات العربية ، وتراجع هرقل فاشلاً منكسرًا إلى القسطنطينية ، وأخذ العرب يهددون آسيا الصغرى بعد أن احتلوا أنطاكية ، رأى المَرَدة أو الجراجمة أن يصالحوا العرب ، اكتساباً لعطفهم ، ووقع الصلح حتماً ، وكلف العرب الجراجمة بأن يكونوا حراساً لجبال طوروس مع فصائل من الجيش العربى ، ويكون لهم الحق حين يشاركون القوات الإسلامية فى الحرب والغزو ، بالاستفادة من غنائم الحرب .

ومن المؤكد أن الجراجمة أو المردة فى هذا الحين كانوا بدوًا على الفِطرة ، لايعرفون من ألوان الحياة إلا الغزو والحرب ، وما وراء الغزو والحرب من مال وغنائم ، وهو ما حمل بعض مؤرخى المسيحية على انتقادهم والنقمة عليهم ، لتأييدهم الإسلام فى حروبه ضد الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية المسيحية ، ولكن الجراجمة لم يكونوا أرثوذكساً ، بل كانوا من الكاثوليك على ما يظهر لنا ، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن حفدتهم هم الموارنة التابعون لروما العظمى .

ولم يخلص الجراجمة للمسلمين كل الإخلاص ، فقد كانوا يساعدونهم حيناً ، وينقضُّونَ عليهم حيناً آخر ، مساوقين بيزنطة فى سياستها الملتوية المضطربة [2] .

---

(١) وكان العرب يسمونهم الجراجمة نسبة إلى بلدة (جرجوما) التى كانوا يسكنونها ، وكانت أكبر مدنهم .

(٢) البلاذرى : تقويم البلدان .

فلما قام العرب بمهاجمة القسطنطينية برًّا وبحرًا رأت بيزنطة من حُسن السياسة أن تؤلب الجراجمة على العرب ، وتدفعهم إلى غزو الحدود الإسلامية ، بحيث تشغل العرب ولو قليلاً عنها ، وبحيث يكون بطوقها أن تعزز سلاحها ، وترتب أمورها ، وقد تمكن الإمبراطور قسطنطين الرابع ــ حوالى سنة ٦٦٦ ميلادية ــ من اكتساب عطف الجراجمة ، فاستمالهم إليه بشتى الوعود ، كما أمدهم ببعض الفرق البيزنطية ، وأمرهم بمهاجمة السواحل الإسلامية ، فصدعوا بالأمر ، وتمكنوا من الوصول إلى جبال لبنان بعد أن اقتحموا أكثر سواحل سورية الممتدة من جبال طوروس إلى فلسطين .

وكان معاوية أمام هذا الموقف بين عاملين : الأول مهاجمة الجراجمة وإجلاؤهم عن المدن التى احتلوها ، حتى لا يكون بطوقهم التمكن فى السواحل وقطع الصلة بين دمشق والإمبراطورية الإسلامية وراء البحار ، والعامل الثانى الاتفاق مع بيزنطة على وقف هذه الغزوات ، ثم مهاجمة الجراجمة وتمزيقهم .

والظاهر أن معاوية فضل الرأى الثانى ، واتفق مع بيزنطة على مال يؤديه إليها ، وهدايا يقدمها لإمبراطورها ، بشرط ألّا تؤيد هذه الجراجمة ، وأن تتنكر لهم ، ورضيت بيزنطة بهذا الاتفاق ، إذ مكنها ــ على مانعتقد ــ من الاطمئنان إلى سلامة حدودها ولو مؤقتاً ، وقام معاوية فى نفس الوقت بمهاجمة الجراجمة أو المردة فى لبنان ، والإمعان فيهم قتلاً وتشتيتاً ، بحيث لم يبق منهم إلا أقلية ضئيلة ظلت معتصمة فى الجبل حتى أيام عبد الملك بن مروان (١) .

وظل الجراجمة يثيرون المتاعب والقلاقل حتى اضطر عبد الملك بن مروان أن يدفع للجراجمة أموالاً كما كان يدفع للروم حين اضطر أن يداريهم وهو مشغول

---

(١) تقول المصادر اليونانية إنَّ الاتفاق الذى صار بين معاوية والإمبراطور كان يقوم على عدة بنود منها : أن يؤدى معاوية إلى الإمبراطور ثلاثة آلاف قطعة ذهبية فى السنة ، وأن يطلق سراح ثمانية آلاف أسير ، وأن يرسل له خمسين جوادًا من أحسن الخيول العربية .

بالقضاء على الفتن الأهلية ، وكان إمبراطور الروم يرسل جماعات منهم إلى الشام لإثارة الفتن والقلاقل ، وليكونوا عيناً له ضد العرب ، واضطر عبد الملك أن يعمل ما عمله معاوية ، وذلك بإرسال جماعات من العراق وفارس إلى سواحل الشام لإسكانهم بين الجراجمة ، وذلك كى تخف سطوتهم ودسائسهم . ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك نقل إلى أنطاكية قوماً من زط السند الذين أرسلهم محمد بن القاسم من السند إلى الحَجاج ، فبعث بهم الحجاج إلى الشام .

واستطاع الوليد بن عبد الملك أن يقضى نهائيًّا على خطر المردة ، إذ هاجم مسلمة بن عبد الملك الجراجمة فى عقر دارهم ، ودمر عاصمتهم جرجوما ، فمات بعضهم ، وهاجر البعض إلى الأناضول ، وانضمت جماعة منهم إلى جيش الشام وقاتلوا تحت لواء الإسلام ، وساهموا فى عهد يزيد بن عبد الملك فى إخضاع الفتن التى نشبت فى العراق .

وهكذا ، ومنذ أن بدأ معاوية بن أبى سفيان سُنة الجهاد ضد الروم ونحن نرى أن الغزو أصبح نظاماً مطردًا ، وأنه قلما نجد سنة لا يغزو فيها العرب أرض الروم ، وكان هذا الغزو يقع فى الصيف ، ويقال له الصائفة ، ويقع فى الربيع ويقال له الربيعية ، وكانت الصائفة أطول من الربيعية . أما غزو الشتاء فكان يحدث نادرًا جدًّا ، لأن البرد والثلوج كانا يعوقان حركة الجند ، وإذا كان لابد من غزو الشتاء أو « الشاتية » فإنها تكون قصيرة جدًّا لاتتجاوز عشرين يوماً ، وكان يطلق أحياناً اسم الشاتية على الغزوة الربيعية .

وكان نتيجة الصوائف والشواتى أن حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة فى شمال العراق تحصيناً منيعاً ، وأُقيم هناك خطَّان دفاعيان ، أحدهما أمامى يُطلق عليه خط الثُّغور ، والآخر خلفى يُطلق عليه اسم العواصم .

أما الثغور فهى خط الحصون الخارجى الشمالى ، والثغر هنا مايلى أرض العدو من أرض العرب ، أى الثغرة التى يدخل منها العدو إلى أرض العرب . وكان خط الثغور ينقسم قسمين : ثغور الشام ، أى الأماكن الحصينة التى تحمى الشام من عدوان الروم ، وثغور الجزيرة ، أى ثغور الإقليم الواقع شمالى دجلة والفرات .

ومن أهم الثغور الشامية مدينة طرسوس الواقعة جنوبى آسيا الصغرى ، بالقرب من ساحل البحر المتوسط . وقد هيمنت طرسوس على مركز الهجوم على مدخل بلاد الروم الجنوبى الشهير بأبواب قليقية ، وهو ممر فى جبل طوروس ، فجعلها العرب قاعدة حربية شنوا منها الحملات على مناطق الروم .

ومن الثغور المهمة أيضاً أدنة (أطنة) والمصيصة (موبسوستيا) .

ومن الثغور الجزرية شمشاط وملطية ومرعش (جرمانيقية) والحدث وزبطرة .

أما خط العواصم فكان يلى خط الثغور ، أى يعصم الدولة العربية من الأعداء ، وكان أهم بلدانه حلب ومنبج .

والواقع أنه كان هناك حاجز طبيعى منيع يساعد على الفصل شبه التام بين دولة العرب ودولة الروم ، وهو جبال طوروس التى تتكون من سلسلتين متوازيتين من الجبال : سلسلة جبال طوروس ، وسلسلة جبال طوروس الداخلية التى تواجه الحدود العربية ، والتى كان العرب يسمونها جبل اللكام . وكان العرب ينفذون من جبل اللكام من ممرات جبلية ، أو من دروب على حد تعبير العرب ، منها درب الحدث ، ودرب السلامة بالقرب من طرسوس وكان أكثر ارتيادًا من الطريق الآخر .

وقد دأب الوليد بن عبد الملك على محاربة الروم كل سنة تقريباً ، وكان بطل حرب الروم أخوه مسلمة بن عبد الملك وأبناء الوليد ، ففى سنة ٨٨ هـ

(٧٠٧ م) غزا العرب الصائفة بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخ الخليفة ، والعباس بن الوليد ابن الخليفة ، وفتحوا حصن الطوانة ، وكان هذا الحصن من أعظم حصون الروم فى آسيا الصغرى فى بلاد القباذق (كبدوكية) وفى سنة ٨٩ هـ غزا مسلمة أرض الروم ومعه العباس بن الوليد ، أما مسلمة فإنه افتتح حصن سورية [١] كما قصد عمورية وهزم الروم هناك ، وافتتح هرقلة وقمودية ، أما العباس بن الوليد فإنه افتتح أذرولية (درولية — درويليوم) كذلك غزا العباس الصائفة من ناحية البدندون (البذندون) . وفى سنة ٩٠ هـ غزا مسلمة أرض الروم ففتح الحصون الخمسة التى بسورية ، كما بلغ العباس بن الوليد الأرزن . وتوالت غزوات مسلمة بن عبد الملك فى أرض الروم فى السنوات التالية فغزاها فى سنة ٩١ هـ وسنة ٩٢ هـ وسنة ٩٣ هـ . واستطاع مسلمة أن يفتتح حصوناً كثيرة من أرض الروم فى الأناضول ، مثل حصن الحديد ، وسوسنة ، وغزالة ، وبرجمة ، واشترك مروان بن الوليد وعمر بن الوليد فى الغزوتين الأخيرتين . وفى سنة ٩٤ هـ غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، وقيل إنه فتح أنطاكية ، كما غزا عبد العزيز بن الوليد أرض الروم حتى بلغ غزالة . ويذكر الطبرى أن يزيد بن أبى كبشة وصل أرض سورية [٢] فى هذه الغزوة .

كذلك غزا العباس بن الوليد أرض الروم فى سنة ٩٥ هـ ففتح الله على يديه ثلاثة حصون وهى : طولس ، والمرزبانين ، وهرقلة . ثم غزا بشر بن الوليد الشاتية فى سنة ٩٦ هـ فقفل وقد مات الخليفة الوليد بن عبد الملك . وجدير بالذكر أن الوليد بن عبد الملك أخذ يعد حملة برية بحرية لغزو القسطنطينية ، لكنه مات قبل أن ينفذ المشروع .

---

(١) يورد الطبرى ج ٨ ص ٦٧ — ٦٨ اسم سورية وحصونها على أنها منطقة من أرض الروم جنوب آسيا الصغرى ، وفى أقصى شمالى الشام ، وعلى أنها كانت تابعة للروم حتى غزاها العرب زمن الوليد .

(٢) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٩١ .